

تفاوت الإيقاعات الزمنية في رواية 'الفراغ العريض' لملكة الدار محمد عبد الله:
مقاربة نقدية في ضوء مفهوم التسارع

Disparate Temporal Rhythms in Malika Al-Dar Muhammad Abdullah's Novel *Al-Faragh Al-Arid*: A Critical Approach in Light of the Concept of Social Acceleratio

د. عواطف أحمد محمد الإمام*

أستاذ مساعد قسم الدراسات الأدبية والنقدية- كلية اللغة العربية – جامعة أم درمان الإسلامية –
السودان، awatif.a.elemam@oiu.edu.sd

تاريخ النشر: 2026/10/15

تاريخ المراجعة: 2026/08/28

تاريخ الإيداع: 2026/07/28

الملخص

هدف هذا البحث إلى تحليل الإيقاعات الزمنية في رواية الفراغ العريض لملكة الدار محمد عبد الله، والكشف عن أثر تفاوتها في بناء الدلالة السردية، من خلال توضيف مفهوم التسارع الاجتماعي. وتمثلت مشكلة البحث في بيان الكيفية التي أسهم بها تفاوت سرعات التحول بين المجال العام والبنية الاجتماعية والذات النسوية في تشكيل الزمن الروائي وإنتاج دلالة الفراغ والاعتراب. واعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، مستنداً إلى تحليل النص الروائي في ضوء مقاربات السرد الحديثة. كما استند إلى أدوات تحليل الزمن السردية، ولا سيما مفاهيم التسارع الاجتماعي، وعدم التزامن، والاعتراب الزمني، والزمن المعيش، مع الإفادة من تصورات النقاد الغربيين والعرب لمفهوم التسارع. وتوصل البحث إلى أن الرواية تبني رؤيتها على اختلاف الإيقاعات الزمنية، وأن «الفراغ» يمثل حصيلة الفجوة بين الزمن والتحقق، بما يجعل الزمن عنصراً بنائياً ودلالياً يكشف حدود التحول الاجتماعي وأزمة الذات النسوية في المجتمع السوداني.

الكلمات المفتاحية: التسارع الاجتماعي، الزمن السردية، الذات النسوية، رواية الفراغ العريض.

Abstract

This study aimed to analyze the temporal rhythms in *Al-Faragh Al-Arid* by Malika Al-Dar Mohamed Abdullah and to reveal the impact of their variation on the construction of narrative meaning through the employment of the concept of social acceleration. The research problem was represented in examining how the varying speeds of transformation between the public sphere, the social structure, and the female self-contributed to shaping narrative time and producing the significance of emptiness and alienation. The study adopted the descriptive-analytical method, based on the analysis of the novel in the light of modern narratological approaches. It also relied on the tools of narrative time analysis, particularly the concepts of social acceleration, desynchronization, temporal alienation, and lived time, while benefiting from

*المؤلف المراسل: عواطف أحمد محمد الإمام

the perspectives of Western and Arab critics on the concept of acceleration. The study concluded that the novel constructs its vision on the basis of the diversity of temporal rhythms and that the "void" represents the outcome of the gap between time and realization, making time a structural and semantic element that reveals the limits of social transformation and the crisis of the female self in Sudanese society.

Keywords: Social Acceleration, Narrative Time, Feminine Subjectivity, *Al-Faragh Al-Arid*

مقدمة:

قدّمت هذه الدراسة قراءةً لرواية الفراغ العريض لملكة الدار محمد عبد الله في ضوء مفهوم التسارع الاجتماعي، للكشف عن الكيفية التي تتشكل بها الإيقاعات الزمنية داخل العالم الروائي، وعن أثرها في بناء الشخصيات وإنتاج الدلالة. وتنطلق الدراسة من فرضية مؤداها أن الزمن في الرواية لا يؤدي وظيفة تنظيم الأحداث فحسب، بل يمثل بنيةً جمالية ودلالية فاعلة تكشف طبيعة التحولات الاجتماعية والثقافية التي شهدها المجتمع السوداني في مرحلة ما بعد الاستعمار، وما نتج عنها من تفاوت في سرعات التغير بين المجال العام، والبنية الأسرية، والذات الفردية.

ولتحقيق هذا الهدف، اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، مستفيدةً من الإطار النظري الذي صاغه (هارتموت روزا) في دراساته حول التسارع الاجتماعي وعدم التزامن والاعتراّب، مع الاستفادة من تصورات (بول ريكور) في الزمن المعيش، و(جيرار جينيت) في زمن الحكاية والخطاب، و(ميخائيل باختين) في الكرونوتوب، إلى جانب إسهامات عدد من النقاد العرب، مثل (حسن بحراوي، وسيزا قاسم، وسعيد يقطين)، في تحليل الزمن الروائي والخطاب السردية.

وقد توزعت الدراسة على ثلاثة مباحث مترابطة؛ تناول الأول الإطار النظري لمفهوم التسارع الاجتماعي وعلاقته بالزمن السردية، ودرس تجليات الإيقاع الزمني في الرواية وتقنياته الفنية. وانتقل المبحث الثاني إلى تحليل تفاوت الإيقاعات الزمنية وعدم التزامن داخل العالم الروائي، مبررًا الفجوة بين تسارع التحولات العامة وبطء التحولات الاجتماعية، وانعكاس ذلك في التجربة الوجودية للذات النسوية، وما نتج عنه من إيقاعات الانتظار والتعطّل والاعتراّب. أما المبحث الثالث فقد ركز على الدلالة التي يفرضي إليها هذا الاختلال الزمني، موضّحًا كيف يتحول الفراغ من دلالة نفسية إلى بنية زمنية تكشف الفجوة بين الإمكان والتحقق، وكيف تتجسد آثارها في الجسد والذاكرة والفقد، حتى يغدو الزمن ذاته مولدًا للمعنى ومفسرًا للمصير الإنساني للشخصيات.

وتسعى هذه الدراسة إلى الإسهام في توسيع آفاق قراءة الرواية السودانية من منظور الزمن السردية، وإبراز إمكانات توظيف نظرية التسارع الاجتماعي في تحليل النصوص الأدبية العربية، بما يكشف عن التفاعل العميق بين التحولات التاريخية والبنية السردية، ويؤكد أن الفراغ العريض لا تقدم الزمن بوصفه إطارًا محايدًا للأحداث، بل تجعله محورًا لبناء الرؤية الفكرية والجمالية للرواية، ومنطلقًا لفهم أزمة الذات النسوية في مجتمع تتفاوت فيه سرعات التحول.

المبحث الأول: الإطار النظري

يُشكل هذا المبحث الأساس المفهومي والمنهجي الذي تنطلق منه الدراسة في تحليل العالم الروائي؛ إذ يحدد مفاهيمها الرئيسية، ويوضح أداتها النقدية، ويؤسس للعلاقة بين النظرية والتطبيق السردية، وانطلاقاً من ذلك، يستعرض المبحث الخلفية النظرية المعتمدة في تفسير ظاهرة تفاوت الإيقاعات الزمنية داخل الخطاب الروائي، مستفيداً من أطروحة «التسارع الاجتماعي» عند- هارتموت روزا -ومستنداً إلى منجزات السرديات الحديثة؛ ولا سيما نظرية الزمن السردية عند- جيرار جينيت -، فضلاً عن الإسهامات النقدية لكل من- بول ريكور -، وسعيد يقطين، وحسن بحراوي في تحليل بنية الزمن والسعة الإيقاعية للنص الروائي.

المطلب الأول: مفهوم التسارع الاجتماعي وأبعاده النظرية

يتناول هذا المطلب التأصيل النظري لمفهوم التسارع الاجتماعي، انطلاقاً من تعريفه لغةً واصطلاحاً، ومروراً بنظرية هارتموت روزا، ووصولاً إلى مستوياته المختلفة ومفهوم عدم التزامن. أولاً: مفهوم التسارع لغةً واصطلاحاً: مشتق التسارع من الفعل "سَرَعَ" بمعنى السرعة، وهو نقيض البطء، ويدل على سرعة الحركة أو الانقضاء. اصطلاحاً، يُعرف التسارع الاجتماعي: (بأنه الزيادة المتصاعدة في وتيرة التغير في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية، بما في ذلك التكنولوجيا، والتحول الاجتماعي، وتيرة الحياة اليومية¹.

ثانياً: نظرية هارتموت روزا في التسارع الاجتماعي: واحدة من أهم المقاربات المعاصرة لتحليل الحداثة. بحيث يرى أن المجتمعات الحديثة لا تتسم بمجرد التغير، بل بتسارع هذا التغير نفسه، مما يخلق علاقة إشكالية بين الإنسان والزمن. فالتسارع، في نظره، ليس مجرد ظاهرة عابرة، بل هو مبدأ تنظيمي مركزي للحداثة المتأخرة، ينتج عنه شعور دائم بالضغط الزمني وفقدان الاستقرار².

ثالثاً: مستويات التسارع: يميز -روزا- بين ثلاثة مستويات مترابطة التسارع التقني: ويُقصد به الزيادة المقصودة والمطرودة في سرعة العمليات الموجهة نحو تحقيق غايات محددة؛ إذ يتجلى في التطور المتسارع لوسائل النقل، والاتصال، وتكنولوجيا الإنتاج. ويؤدي هذا المستوى إلى انكماش المسافات المكانية وتقليص الحيز الزمني اللازم لإنجاز المهام.

تسارع التغير الاجتماعي: ويشير إلى تزايد معدل التحول في الممارسات الاجتماعية، والأنماط الثقافية، والهياكل المؤسسية. فالمعايير والقيم التي كانت تثبت لأجيال متعاقبة أصبحت تتغير في غضون سنوات أو أشهر معدودة، مما يُفقد الخبرات والتجارب الاجتماعية استقرارها وتماسكها التاريخي.

تسارع وتيرة الحياة: ويتمثل في الشعور الذاتي بضيق الوقت، مع تزايد عدد الأفعال والخبرات المعيشة في كل وحدة زمنية. ويدفع هذا التسارع الأفراد إلى الإسراع في أداء مهامهم اليومية، والضغط الزمني المستمر، والاستعاضة عن الأنشطة والفعاليات الممتدة بأخرى قصيرة وسريعة الأثر³.

رابعاً: مفهوم عدم التزامن: يعد مفهوم "عدم التزامن" من النتائج الجوهرية لنظرية التسارع. يعرف بأنه فقدان التطابق الإيقاعي بين المجالات الاجتماعية المختلفة أو بين الأنظمة الفرعية للمجتمع. فبينما تسارع

بعض المجالات (مثل الاقتصاد والتكنولوجيا) بسرعة فائقة، تظل مجالات أخرى (مثل الأسرة، أو البيروقراطية، أو الهويات الثقافية) محافظة على إيقاعات أبطأ، مما يولد توترًا بنيويًا. ويمثل هذا المفهوم أداة تحليلية حاسمة لفهم التفاوتات الزمنية داخل النصوص الأدبية.⁴

المطلب الثاني: الإيقاع الزمني في السرد الروائي:

يُعد الإيقاع الزمني من أبرز المكونات البنائية في الخطاب الروائي، إذ لا يقتصر على ترتيب الأحداث وفق تسلسلها الزمني، وإنما يسهم في إنتاج الدلالة من خلال تنظيم العلاقة بين زمن الحكاية وزمن السرد وقد بلور - جيرار جينيت- هذا التصور في دراسته للزمن السردى، مبيّنًا أن السارد يتحكم في سرعة السرد بواسطة تقنيات متعددة، أهمها: التلخيص، والحذف والمشهد والوقفه الوصفى، والإضمار، وهي تقنيات تجعل الزمن السردى يختلف عن الزمن الواقعي للأحداث.⁵

كما يؤكد -بول ريكور- أن الزمن في الرواية ليس زمنًا فيزيائيًا، بل هو زمن إنساني تتشكل دلالاته من خلال السرد؛ إذ يمنح الخطاب الروائي التجربة الإنسانية نظامًا زمنيًا يكشف العلاقات بين الماضي والحاضر والمستقبل.⁶

وفي السياق العربى، يذهب -سعيد يقطين- إلى أن السرعة السردية تمثل أحد أهم مؤشرات بناء الخطاب الروائي؛ لأنها تكشف آليات اختيار السارد لما يوسعه أو يختزله من زمن الحكاية.⁷

في حين يوضح -حسن بحراوي-: أن الإيقاع الزمني لا يتحقق إلا من خلال العلاقة بين التعجيل والإبطاء، وبين الامتداد الزمني وكثافة الخطاب. وعليه، فإن دراسة الإيقاع الزمني لا تنصرف إلى قياس الزمن في ذاته، وإنما إلى تحليل الكيفية التي ينظم بها السرد حركة الزمن، ويعيد توزيع الأحداث وفق غاياته الفنية والدلالية.⁸

المطلب الثالث: العلاقة بين مفهوم التسارع وتحليل الزمن الروائي:

تمثل نظرية التسارع الاجتماعى إطارًا نظريًا مناسبًا لدراسة الزمن في الرواية؛ لأنها تتيح تجاوز النظر إلى الزمن بوصفه تعاقبًا كرونولوجيًا للأحداث، إلى اعتباره تمثيلًا لاختلاف سرعات التحول داخل المجتمع.

فالرواية لا تعكس الواقع انعكاسًا مباشرًا، وإنما تعيد تشكيكه من خلال بناء سردى يجعل بعض الإيقاعات الزمنية سريعة، ويجعل بعضها الآخر بطيئًا أو متعثرًا، بما يكشف تفاوت الحركة بين المجالات الاجتماعية المختلفة.⁹

ومن هذا المنطلق، تستفيد الدراسة من مفهوم التسارع بوصفه أداة تحليلية للكشف عن أشكال "عدم التزامن" داخل العالم الروائى، وربطها بالبنية الزمنية للنص، دون افتراض تطابق كامل بين النظرية والواقع التاريخي الذي تصوره الرواية. فالمقصود ليس إثبات أن المجتمع الروائى مجتمع متسارع بالمعنى السوسيولوجي، وإنما توظيف المفهوم للكشف عن اختلاف الإيقاعات الزمنية التي تنتظم بنية السرد.¹⁰

المبحث الثاني: تجليات التسارع وتفاوت الإيقاعات الزمنية في رواية "الفراغ العريض"

يُعدّ الزمن أحد المكونات البنائية الرئيسة في الخطاب الروائي؛ إذ لا يقتصر دوره على تنظيم تعاقب الأحداث، بل يتجاوز ذلك إلى تمثيل التحولات التاريخية والاجتماعية والثقافية التي تُشكل العالم الروائي. وقد تجاوزت الدراسات السردية الحديثة النظر إلى الزمن بوصفه إطاراً كرونولوجياً محايداً، لتتعامل معه باعتباره بنية ديناميكية تنتج دلالاتها من تفاعل مستويات متعددة للإيقاع والحركة والتزامن.¹¹

كما يُقصد بالتسارع (أو الإيجاز/الطيّ السردى) في زمن السرد: تغطية فترات زمنية طويلة من الأحداث في مساحة نصية وجيزة، مما يسرّع رتم الزمن ويقلل التباطؤ، متناغماً مع التحولات المفاجئة في مصائر الشخصيات أو الانتقالات المكانية والنفسية. وفي رواية "الفراغ العريض"، نجد تفاوتات إيقاعية واضحة تُبرز تجربة المرأة والمجتمع السوداني في تلك الفترة.

وفي هذا السياق، تُمثل رواية «الفراغ العريض» لملكة الدار محمد عبد الله نموذجاً سردياً يكشف اختلاف سرعات التحول داخل المجتمع السوداني خلال مرحلة انتقالية حاسمة امتدت من أواخر الحكم الاستعماري إلى البدايات الأولى للاستقلال. وانطلاقاً من هذا التصور، يسعى هذا المبحث إلى تحليل خرائط الإيقاع الزمني في الرواية عبر تتبع العلاقة بين الزمن التاريخي والزمن الاجتماعي والزمن الذاتي، مستفيداً من مفهوم "التسارع الاجتماعي" عند النقاد؛ للكشف عن الكيفية التي تتوزع بها التحولات داخل العالم الروائي وفق إيقاعات متفاوتة، وما يترتب على ذلك من توترات دلالية تمس المجتمع والأسرة والذات النسوية.

ويتوزع هذا المبحث على ثلاثة مطالب رئيسة:

المطلب الأول: إيقاع التحول التاريخي والاجتماعي: حركة الزمن العام

لا يُقدّم الزمن التاريخي في رواية «الفراغ العريض» بوصفه تعاقباً زمنياً مجرداً للأحداث أو خلفية محايدة تتحرك فوقها الشخصيات، وإنما يتجسد قوةً فاعلة تعيد تشكيل المجال الاجتماعي، وتؤثر في أنماط العيش والعلاقات الإنسانية ومؤسسات المجتمع. ولذلك لا تعتمد الرواية التأريخ المباشر للأحداث السياسية الكبرى، وإنما تكشف آثارها من خلال تفاصيل الحياة اليومية، مثل: وسائل النقل، والتعليم، والعمل، ووسائل الاتصال، واتساع حضور المرأة في المجال العام. وبهذا يتحول الزمن التاريخي إلى «زمن عام» تتحرك الشخصيات في إطاره، غير أنها لا تستجيب جميعها لإيقاعه بالسرعة نفسها، الأمر الذي يفضي إلى تفاوت واضح بين مستويات التحول داخل المجتمع.¹²

يبرز هذا الإيقاع منذ الصفحات الأولى عبر استحضار الحرب العالمية الثانية مؤشراً فاعلاً في الحياة اليومية للشخصيات، لا مجرد علامة زمنية لتأطير الأحداث. فارتباط سفر والد «منى» إلى تشاد بظروف العمل في زمن الحرب يكشف تسلسل التحولات التاريخية الكبرى إلى المجال الأسري، لتُعيد توزيع الأدوار والمسؤوليات داخله وتجعل التاريخ جزءاً من التجربة المعيشة.

وهنا تنتقل الرواية من تسجيل الوقائع إلى تمثيل آثارها الاجتماعية والنفسية؛ حيث يغدو التاريخ قوة قاهرة تُعيد تشكيل مسارات الأفراد. ويتقاطع هذا مع الطرح النقدي حول تحول «الزمن الكوني/التاريخي» إلى

«زمن معيش» عبر السرد؛ إذ تُعيد الحبكة صياغة الأحداث العالمية الكبرى لتدخل في صميم القلق اليومي، فتتحول الحرب من قتال نائي إلى إعادة تشكيل قسرية للهيكل البنائي للأسرة.

وتتكشف أولى تقنيات التسارع السردى عبر انفتاح العالم الروائي على شبكة انتقال متسعة تكسر عزلة الذات والمكان، حيث يرتفن أفق الأخبار بوسائل النقل التجارية العابرة للحدود:

كانت أخبار والدي تصلنا في فترات متباعدة من سائقي اللواري التجارية القادمة والرائحة من وإلى السودان الفرنسي¹³ بحيث لا تقتصر دلالة «اللواري التجارية» على كونها معطى واقعياً، بل تعكس بداية تآكل الجغرافيا المغلقة وتحول المكان إلى فضاء شبكي، وهو ما يُحلل ضمن مفهوم «التسارع التقني المتمثل في تقليص زمن قطع المسافات الجغرافية بفعل الوسائط الحديثة، وبالرغم من أن مجتمع الرواية لم يبلغ نمط الحداثة المتأخرة، فإن الميكانيزم التقني ينقل المجتمع من «زمن الركود المحلي» إلى «زمن الحركة التراكمية

فنجد هنا استحضار غياب الأب، حيث تظهر تقنية «التسارع الاسترجاعي» لاختزال سنوات الشتات والغياب في عبارة مكثفة: أجابت: (لم يعد بعد رغم مضي ثماني سنوات على فراقه لنا. وهويا صديقتي يترأى لي دائم).¹⁴

ففي ضوء مفهوم التسارع: يبرز هنا اختزال مأساة غياب الأب وفقدانه في عبارة مكثفة: «ثماني سنوات». إن زمن الغياب الممتد لثماني سنوات لم يُستعرض تفصيلياً، بل تم تسارعه وإيجازه بحضور خاطف يختزل معاناة الشتات وتأثير الأب الغائب على بنية الأسرة، مستخدماً الحوار كأداة لاختزال الزمن المنقضي وتجسيد الآثار النفسية للحرب العالمية الكبرى على التماسك الأسري.

يتوافق هذا التحليل مع ما نجده أيضاً في الأدب المقاوم عند غسان كنفاني في رواية (رجال في الشمس)؛ حيث تتلخص سنوات التيه واللجوء في إشارات زمنية سريعة ومكثفة تفصح عن عمق المأساة والتحول الاجتماعي الحاد.¹⁵

ونجد هنا انتقال الأسرة من القرية إلى المدينة أم درمان وتتجسد حركة وسائل النقل والتلخيص السردى في رحلة القطار نحو العاصمة إذ لا يمثل الانتقال تغيراً مكانياً فحسب، بل يعكس انتقالاً من إيقاع اجتماعي تقليدي رتيب إلى فضاء حضري أكثر اتصالاً بالتعليم والعمل والحركة. وتتجسد دلالة هذا الانتقال في مشهد رحلة القطار، إذ تورد الرواية: (ظلت منى تتابع المناظر المتشابهة، والصور المتباينة المتلاحقة من نافذة القطار... ولم يلبث القطار أن انطلق ينهب الأرض التي استقامت له... حتى انقضى النهار، وأقبل الليل... وأشرق الصباح... لتجد أن القطار قد سكنت حركته... فأدركت أنهم قد بلغوا الخرطوم...)¹⁶.

تتجلى القيمة الزمنية في الملمح البصري للتلاحق (المتلاحقة)؛ إذ لم يعد المكان يُدرك عبر الإقامة الطويلة، بل يُستهلك بصرياً كشريط متتابع تفرضه حركة القطار.

وتتقاطع حركة وسائل النقل (القطار) مع سرعة الإيقاع السردى؛ فالزمن الفيزيائي للرحلة (من الأقاليم إلى الخرطوم عبر يوم ليله) انكمش في فقرة قصيرة تُجسد سرعة الحركة المكانية وتسارع الخواطر النفسية

لشخصية (منى). إن الحركة الآلية للقطار عبر عبارة «ينهب الأرض» عكستها الكاتبة بواسطة مفردات السرعة والتتابع لتسريع الخطاب السردى وعكس صدمة التحول التكنولوجي.

فيعتمد هذا المقطع على تقنية التلخيص الزمني؛ إذ تختزل الكاتبة رحلة تمتد يوماً كاملاً في مساحة سردية قصيرة، فيتسارع زمن الخطاب مقارنة بزمن الحكاية، والتلخيص يمثل أحد أهم مظاهر السرعة السردية؛ لأنه يختزل مدة زمنية طويلة في عدد محدود من الأسطر، بما يسمح للسرد بتجاوز الأزمنة الانتقالية والتركيز على اللحظات الأكثر دلالة. كما تُسهّم الأفعال المتتابعة (انطلق، ينهب، انقضى، أقبل، أشرق، بلغوا) في تكوين إيقاع سريع يعكس دينامية الحركة، ليغدو القطار رمزاً للانتقال الحضاري والتسارع التكنولوجي. ويشير -حسن بحراوي- إلى أن وسائل المواصلات الحديثة في الرواية العربية لا تؤدي دوراً وظيفياً في نقل الأجساد فحسب، بل تحدث صدمة إيقاعية في وعي الشخصيات القادمة من الريف، مما يقطع صلتها بالزمن البطيء القديم ويرمي بها في أتون زمن المدينة المتسارع¹⁷.

وتظهر هنا الكاتبة الصدمة الإيقاعية والتفاوت بين المتخيل والواقع المعيش: بحيث أن الوصول إلى المدينة لا يحقق التحول المتوقع بصورة كاملة؛ إذ تصطدم الشخصيات بالفارق بين الصورة المتخيلة والواقع المعيش. حيث تورد الرواية هذا الاصطدام عند رصد خيبة (منى):

(لذلك أحست بالخيبة عندما لم تجد من الحديقة إلا شجيرات عجفاوات، لا ظل فيهن ولا ثمر، ولا من "الديوان"، إلا بناية قديمة كل ما بها أغبر باهت... أما بيت الجدة وإن كان متسعاً قليلاً إلا أنه قد حشد حشداً بكل ما تمتلكه النسوة من قديم وجديد...) ¹⁸

يكشف هذا المشهد أن المدينة نفسها تجمع بين مظاهر الحداثة وبقايا البنية التقليدية، مما يعزز فكرة تفاوت الإيقاعات الزمنية داخل المجتمع الروائي. فالصورة الذهنية المتسارعة للحدث تصطدم بركود المكان الواقعي (الشجيرات العجفاء"، "البناء الباهت)؛ حيث يحلل النقد الأدبي هذا الشاهد بوصفه معادلاً موضوعياً لتذبذب الحداثة نفسها؛ فالمدينة التي بشرت بالتغيير تنكشف عن جيوب زمنية ميتة تحافظ على إيقاعها الركيك، ما يولد شعوراً مبكراً بالإحباط لدى الذات النسوية المتطلعة للانفتاح.

ويستمر التحكم في الإيقاع السردى عبر تقنية الطيّ الزمني لتجاوز الفترات الخالية من التحول: في موضع آخر، إذ تورد الرواية: (وهكذا ومن ذلك اليوم بدأت حياة منى بالوطن الجديد... وبمرور الأيام أخذت تستسلم لتلك الحياة وترضى بها ويزداد تعلقها بالفتاتين... ويمضي عام كامل على مقدم منى وأمها إلى أم درمان، لم تقع خلاله أحداث تُذكر، إلا حدث واحد بدأ بنهايته...) ¹⁹

تُشكل عبارة «من ذلك اليوم» عتبة زمنية فاصلة، بينما تنقل جملة «بمرور الأيام» الزمن إلى البعد الانفعالي والاجتماعي، لتأتي الجملة الأخيرة مطبقة تقنية «الطيّ والتلخيص» باختزال سنة كاملة في جملة واحدة. يُستخدم هذا الإيقاع السريع لطيّ الزمن الرتيب الخالي من الأحداث الجوهرية (زمن السكون والانتظار) بغية الاندفاع فوراً نحو اللحظات المفصلية. وينسجم هذا الصنيع مع ما يطرحه -سعيد يقطين- حول التحكم في

المسافة والسرعة السردية؛ إذ يُعدّ التلخيص من أهم الوسائل التي يتحكم بها السارد في إيقاع الزمن لتركيز الانتباه على اللحظات الدالة وعزل زمن الهامش ويؤكد سعيد يقطين أن التلخيص يعد من أهم الوسائل التي يتحكم بها السارد في إيقاع الزمن؛ إذ يوسع بعض الفترات ويختزل بعضها الآخر بحسب قيمتها الدلالية داخل البناء الروائي فالسنوات التي لا تشهد تحولاً جوهرياً في وعي الشخصية أو وضعها الاجتماعي تُطوى سردياً لتعميق الرغبة في الوصول إلى لحظات التغيير الحقيقية.²⁰

حيث اختزلت الكاتبة سنة كاملة في جملة واحدة، مما جعل زمن الخطاب أقصر بوضوح من زمن الحكاية. وينسجم هذا الصنيع مع مفهوم السرعة السردية عند النقاد، ويكشف أنها تتجاوز الفترات الخالية من الأحداث المؤثرة لتوجه اهتمام القارئ إلى اللحظات المفصلية. وعزل زمن السكون يظهر التحكم في الإيقاع الزمني والتفاوت بين فترات الفعل وفترات الركود لتجاوز الزمن الخالي من التحول: وفي مرحلة متقدمة داخل المؤسسة التعليمية، تظهر أدوات الضبط الزمني الصارمة ووسائل الاتصال الفورية:

(سمعت جرس النوم، وتذكرت ميعاد عودتها إلى بيتها، فخرجت تتخبط في خطواتها نحو مدخل الكلية... وأخبرتها إحدى المراسلات بالتلفون الذي أخذ يستدعيها منذ الصباح الباكر.. فاستدارت مندفعة إلى مكتب الباشكاتب ووقفت قريبة من التلفون...)²¹

يدخل مفهوم تنسيق الزمن المؤسسي؛ إذ أصبح يوم الشخصية مقسماً وفق أدوات تنظيمية حديثة (الجرس، الميعاد). فالحدثات تتسم بترسيخ «الجدول الزمنية الصارمة» التي تحل محل الإيقاع الطبيعي المفتوح ويصل هذا التحول المؤسسي أوجه مع دخول الهاتف بوصفه أداة تخترق المسافة فوراً وتلغي زمن الانتظار، حيث يترجم الفعل «مندفعة» أثر الإيقاع التقني في فرض «سرعة استجابة» تكثف اللحظة الحاضرة. ويصل اتساع حركة الزمن العام ذروته في التحول البنيوي لحضور المرأة داخل المؤسسة والشرعنة المجتمعية لعملها ودراساتها:

(إذا بالفناء يعج بالفتيات من طالبات الكلية وبالتلميذات الصغيرات يلعبن ويتسابقن.. وبدأ عدد من المدرسين والمدرسات يسرعون الخطى نحو أماكن الدراسة... وكانت منى واقفة بجوار الهاتف...)²²

يُظهر الشق الأول كسر الحصار التاريخي الذي كان يفرض على المرأة الإقامة في الهامش المنزلي، حيث تعكس الأفعال الحركية (يعج، يلعبن، يتسابقن، يسرعون الخطى) والجمع بين الجندين تحولاً كتلياً في المجال العام. غير أن الشق الثاني يقيم تقابلاً بنوياً بين إيقاعين: الزمن المؤسسي العام الذي يستمر في حركته بصرامة (الدراسة قد بدأت، الجميع بالداخل) والزمن الذاتي الانفعالي (منى واقفة بجوار الهاتف) حيث تظل معلقة في لحظة انتظار وترقب. يكشف هذا المشهد جوهر «تفاوت الإيقاعات؛ فالعالم الخارجي يندفع وفق زمن التحديث والتأطير المؤسسي، بينما تظل التجربة الذاتية للأنتى مكبلة بقضاياها العاطفية والوجودية والأسرية. فالرواية لا تطرح مجتمعاً ساكناً، بل تطرح مجتمعاً يتحدث مؤسسياً وسريعاً في بعض جوانبه، بينما تظل أطره العاطفية والجنديرية تفرز عوائق تعطل الذات النسوية.²³

يمكن تفسير هذا التفاوت الإيقاعي في ضوء مفهوم «التسارع الاجتماعي» أن الحداثة لا تجعل مجالات الحياة كافة تتحرك بالوتيرة نفسها، بل تنتج أشكالاً من «عدم التزامن» بين عمليات التغير الاجتماعي. ولا يعني تطبيق هذا المفهوم على رواية «الفراغ العريض» وصف المجتمع السوداني في تلك الفترة بأنه مجتمع شديد التسارع بمدلوله الغربي في الحداثة المتأخرة، وإنما الإفادة منه بوصفه أداة تفسيرية تكشف اختلاف معدلات التحول بين التعليم والعمل والمجال العام من جهة، والأسرة والعلاقات الجندرية من جهة أخرى.

وإن العالم الذي تبدأ فيه «منى» طفلةً ليس هو العالم نفسه الذي تصل إليه في شبابها؛ فقد تحرك التاريخ، وتبدلت بعض شروط المجال العام، واتسعت دوائر التعليم والعمل والوعي الوطني، وهو ما يعكس حركة «الزمن العام» في الرواية؛ إذ يتحرك وفق مسار متنامٍ يتوسل بأدوات الانتقال التقنية (كاللوازي التجارية والقطار السريع)، ومظاهر العمران والكثافة الحضرية (كشوارع الخرطوم الممهدة والأبنية الشاهقة)، وآليات الضبط المؤسسي (كجسرس الكلية ومواعيد العودة)، ووسائل الاتصال الفورية (الاتصال الهاتفي الذي يلغي زمن الانتظار)، فضلاً عن اتساع القاعدة الجماهيرية للتعليم النسوي والعمل المؤسسي، واستخدام السرد لتقنيات التلخيص والطيّ لتجاوز أزمنة السكون والتركيز على لحظات التحول.

غير أن هذه الحركة السريعة للزمن العام لا تؤدي إلى تحول متزامن في بنية العلاقات الأسرية؛ ففي الوقت الذي يشهد فيه المجال العام تغيراً حثيثاً نحو التحديث والاستقلال، تحتفظ الأسرة بقدر كبير من سلطتها وإيقاعها الأبطأ المقاوم للتغيير. وتكشف شخصية «منى» هذه المفارقة بوضوح؛ فهي ابنة زمن متحول تعليمياً وفكرياً، لكنها تظل خاضعة لشروط جندرية واجتماعية لا تتحول بالسرعة ذاتها، مما يجعل اتساع الوعي يزيد من شعورها بالفجوة الإيقاعية بين إمكانات ذاتها وواقعها، ومتردةً بين الحركة والتعطل.

وهنا تتجاوز الرواية التصور الخطي البسيط للتقدم؛ فالانتقال التاريخي لا يعني تحولاً شاملاً أو انتقال جميع الذوات بالدرجة نفسها. وتنبع القيمة السردية والنقدية لـ «الفراغ العريض» من جعل القارئ يواجه مجتمعاً تتجاوز داخله أزمنة متعددة: زمن الحركة التاريخية والمؤسسات الحديثة، وزمن الأسرة الأبطأ تغيراً، وزمن الذات الفردية التي تحاول إيجاد موقعها بين هذه الإيقاعات المختلفة.

المطلب الثاني: إيقاع التحول الأسري والجندري

إذا كان الزمن العام في (الفراغ العريض) يكشف عن تسارع نسبي في التحولات الاجتماعية والمؤسسية، فإن المجال الأسري والجندري يحتفظ بإيقاع أكثر بطئاً، تحكمه منظومة القيم والأعراف الموروثة التي تحد من فاعلية تلك التحولات. ومن ثم، تغدو الأسرة فضاءً يعيد إنتاج السلطة التقليدية، ويؤخر انتقال المرأة إلى الاستقلال الكامل، وهو ما ينسجم مع التصور النقدي لاختلاف سرعات التغير الاجتماعي وعدم تزامنها داخل المجتمع الواحد. ويتجلى هذا البطء في تنظيم علاقة المرأة بالعمل والاستقلال الشخصي، إذ يرد في الرواية: (لولا أن شروط خدمة المتزوجة تقتضي موافقة الزوج)²⁴ لا يؤدي هذا النص وظيفة إخبارية فحسب، بل يكشف

عن بنية اجتماعية تجعل حق المرأة في العمل تابعاً لإرادة الزوج، بما يعكس استمرار السلطة الذكورية داخل الأسرة، على الرغم من التحولات التي شهدتها المجتمع في التعليم والعمل والمؤسسات الحديثة.

وتبرز أهمية هذا الشاهد في أنه يكشف تفاوتاً بين مستويات التغيير؛ فبينما استطاعت المرأة أن تلج فضاءات التعليم والعمل، ظل استقلالها مقيداً بمنظومة أسرية لم تتحول بالسرعة نفسها. وهكذا لا تنفي الرواية حدوث التغيير، وإنما تؤكد أن مجالاته لا تتحرك بإيقاع واحد، الأمر الذي يجعل الزمن الأسري أبداً من الزمن التاريخي والاجتماعي، ويؤسس لحالة من عدم التزامن بين المجالين.

وتتأطر البنية الأسرية داخل السرد وفق زمن ذكوري حذر يمارس هيمنته المطلقة لحماية السائد الاجتماعي، ويقف عائناً أمام أي محاولة لتعديل الأدوار التقليدية أو زحزحتها. ويُجسّد "سيد" سلطة الأبوية التي تُصر على تجميد الزمن عند لحظة السيطرة الذكورية:

لأنه ذكر (وليس الذكر كالأنثى)، ولأنه الحفيد البكر، والولد الأوحد الذي تفخر به الأسرة وتنتظر على يديه خير المستقبل وعزته. وكذلك شبت أختاه (سعاد وساره) ولكن على طاعته وعلى الخشية منه والخضوع له والاستسلام لأوامره..

تستدعي الكاتبة التناص القرآني لتفكيك البنية الفكرية التمييزية؛ فـ "سيد" بالرغم من صغر سنه، يُمنح امتداداً زمنياً ومستقبلياً حصرياً (تنتظر على يديه خير المستقبل). يرى النقد النسوي أن هذا النص يُوثق كيفية إعادة إنتاج السلطة الأبوية عبر الأجيال، حيث يمثل الأخ الزمن المحافظ الذي يلغي حق الإناث في الامتداد الوجودي والمستقل.

ويبلغ هذا الصراع الذروة السردية حينما يتصدى الهيكل الذكوري لرموز التجديد وجماليات الحداثة بالصدمة والعنف الفيزيائي: (فهو بكفه على صدغها يصفعها مرة ومرة ومرة، حتى سقطت على الأرض فتركها ليتحول إلى أخته يصفعها ويضربها بيديه وبرجليه، ويقذف ثلاثهن بكل ما تصل إليه يده، ثم ينقلب إلى الفساتين والصور يمزقها إرباً إرباً ويطؤها بقدميه...) ²⁵

تتجلى في هذا الشاهد تقنية المشهد السردية، حيث يتطابق زمن السرد مع زمن الفعل الفيزيائي لتكثيف لحظة البطش. ويرى النقاد أن تدمير المتعلقات الشخصية (الفساتين، الصور، المرايا) يتجاوز العنف الجسدي ليصبح كسراً لرمزية الزمن النسوي المتطلع للتجمل والتعبير عن الذات، بهدف إرجاع الإناث قسراً إلى إطار الانضباط العرفي التقليدي.

تُبرز الرواية أن هذا التعطل الإيقاعي للأنثى لا يُمارس من الرجال فحسب، بل تُنفذه المؤسسة الأسرية النسوية القديمة (الجدة) حراسةً للنظام السائد:

(إن سيداً أعطى كلمة رجل، وهي أنه لو التحقت سارة بالمعهد أو بأي مدرسة بعد اليوم ليخرجن من هذه الديار... ومن أنتن حتى نضحى بسيد من أجل إرضائكن!! إنكن مجتمعات لا تساوين قلامه من ظفـره) ²⁶

يُظهر الخطاب الأسر للجدة تواطؤ الأجيال السابقة في إيقاف زمن المستقبل بالنسبة للفتيات. يتضح هنا الصادم البنيوي بين "زمن المؤسسة الحداثية" (المعهد) و"زمن الدار المحافظ"؛ حيث تمت التضحية بالطموح التعليمي للأنثى لصالح إرضاء الهيمنة الفردية للذكر، ما كرس هيمنة إيقاع الركود على حياة النساء.

ولا يقتصر بطء التحول على قضية العمل، بل يمتد إلى مختلف القرارات المصيرية المرتبطة بالمرأة؛ إذ تظل خياراتها الشخصية خاضعة لمنظومة الوصاية الأسرية، فتغدو مشاركتها في المجال العام مشاركة جزئية لا توازي ما تحقق لها من تقدم في التعليم أو الوعي. ومن ثم، تؤدي الأسرة دور الحافظة للاستمرار الاجتماعي، فتستوعب بعض مظاهر التحديث، لكنها تعيد تأويلها وفق المرجعيات الثقافية السائدة، بما يبطل أثرها في العلاقات، ويبرز هذا التفاوت بوضوح عند مقارنة هذا المستوى بما كشفه المطلب السابق؛ فبينما يتسارع إيقاع المجال العام بفضل تطور وسائل النقل، واتساع التعليم، وتنامي المؤسسات الحديثة، يظل المجال الأسري خاضعاً لإيقاع محافظ يعيد إنتاج السلطة التقليدية. وهكذا لا يتحرك المجتمع في الرواية بوصفه بنية متجانسة، وإنما بوصفه شبكة من الإيقاعات المتفاوتة التي تتقدم بسرعات مختلفة، وهو ما يتقاطع مع رؤية - النقد للزمن بوصفه تجربة معيشة تتعدد مستوياتها داخل السرد ويتجلى هذا المعنى بأقصى درجات الكثافة السردية والدلالية في الشاهد النصي الذي يرصد لحظة قطع المسار التعليمي لشخصية (سارة) وفرض الزواج التقليدي عليها، مما يعزلها فجأة عن إيقاع العصر المتسارع ويرمي بها في فراغ الانتظار وهنا نجد الكاتبة (ولم تمض أيام حتى كان كل شيء قد تقرر دون أن يُستشار رأيها... ووجدت سارة نفسها تتراجع خطوة إلى الخلف، بينما كانت زميلاتها يتقدمن نحو الامتحانات والشهادة... لقد توقف زمنها الخاص فجأة عند حدود هذا البيت، وأحسّت بأن الأيام أصبحت تشبه بعضها، فراغ يمتد في إثر فراغ، وأن العالم في الخارج يجري بسرعة وهي واقفة مكانها لا تبرحه)²⁷

توظف الكاتبة تقنية التكثيف والتلخيص (ولم تمض أيام حتى كان كل شيء قد تقرر) لعكس السرعة القسرية التي تُتخذ بها القرارات الاجتماعية في مقابل تباطؤ وتعطل زمن الذات. فالقرار الأسري يتخذ إيقاعاً مفاجئاً حاسماً يقطع خط التطور الطبيعي لشخصية سارة . ويقيم الشاهد هنا مفارقة زمانية صارخة بين حركتين: حركة صاعدة ومتسارعة لزميلاتها والمجتمع (يتقدمن نحو الامتحانات... العالم يجري بسرعة)، وحركة نكوصية متجمدة للذات النسوية (تراجع خطوة... توقف زمنها... واقفة مكانها)، هذه الفجوة الحركية هي التجسيد الدقيق لمفهوم عدم التزامن؛ حيث يعيش الفرد في عصر حديث لكنه محاط ببنية زمنية تقليدية تعطل تحققه.

كما تتولد دلالة «الفراغ» هنا ليس باعتباره خلواً من الأشياء، بل بوصفه تكراراً رتيباً للزمن الركيك (أيام تشبه بعضها، فراغ يمتد في إثر فراغ). يتحول الزمن من "زمن إنجاز وتغير" إلى "زمن انتظار وثبات"، فتفقد الأيام قيمتها الكرونولوجية وتتحول إلى مساحة ثقيلة للاغتراب الزمني.

وتتجلى القيمة الفنية لهذا التفاوت في أنه لا يُطرح بوصفه قضية اجتماعية مباشرة، بل يصبح عنصراً بنائياً في تشكيل الصراع الروائي؛ إذ لا ينشأ التوتر من مواجهة صريحة بين الحداثة والتقليد، وإنما من الفجوة الزمنية التي تفصل بين اتساع فرص المرأة في المجال العام واستمرار القيود المفروضة عليها داخل الأسرة. وبذلك

يغدو ببطء الزمن الأسري أحد أهم العوامل التي تؤسس للتوتر الدرامي، وتمهد لظهور أزمة الذات النسوية في المراحل اللاحقة من الرواية.

المطلب الثالث: إيقاع الذات النسوية: بين الحركة والتعطل:

يفضي تفاوت الإيقاعات الزمنية إلى نتيجة سردية بالغة الأهمية، تتمثل في هيمنة الانتظار والتعطل على التجربة الوجودية للشخصية الرئيسية. فالانتظار في الرواية لا يمثل مجرد مرحلة فاصلة بين حدثين، بل يتحول إلى زمن نفسي طويل تتعطل فيه الإرادة ويتأجل فيه الفعل، بينما يعبر التعطل عن انفصال القدرة عن الإنجاز نتيجة اصطدام الذات بقيود اجتماعية ونفسية متراكمة. ويرى النقد-أن هذا النمط من الاختلال يقود إلى أشكال جديدة من الاغتراب؛ إذ تتحرك المؤسسات بوتيرة متسارعة، في حين يعجز الفرد عن ملاحقة هذا الإيقاع. ويتجسد الانتظار في مشهد انتظار (منى) للاتصال الهاتفي، حيث يشير السرد إلى أنها بقيت بجوار الهاتف، في الوقت الذي (تنتهي إلى أن الدراسة قد بدأت، وأن الجميع بالداخل، في المكاتب والفصول)²⁸ ويبرز هذا المشهد مفارقة بين زمن المؤسسة الذي يواصل حركته الطبيعية، وزمن الذات الذي يتوقف عند لحظة انتظار واحدة، فتتسع الفجوة بين الزمن الموضوعي والزمن النفسي.

أما التعطل فيبلغ ذروته في خاتمة الرواية، حيث تتحول الإرادة إلى رغبة عاجزة لا تفضي إلى فعل؛ فالصرخ لا يصبح صوتاً، والجري لا يتحول إلى حركة، وتنتهي المحاولة إلى خطوات مضطربة لا تغير الواقع. ويؤسس السرد لهذا الإيقاع من خلال التكرار البنائي لعبارة (أرادت... لكنها لم تستطع) فيتحوّل العجز إلى نمط زمني دائم، لا إلى حادثة عابرة

ويتجلى هذا المعنى بأقصى درجات الكثافة السردية والدلالية في الشاهد النصي الذي يرصد لحظة قطع المسار التعليمي لشخصية (سارة) وفرض الزواج التقليدي عليها، مما يعزلها فجأة عن إيقاع العصر المتسارع ويرمي بها في فراغ الانتظار:

(ولم تمض أيام حتى كان كل شيء قد تقرر دون أن يُستشار رأيها... ووجدت سارة نفسها تتراجع خطوة إلى الخلف، بينما كانت زميلاتها يتقدمن نحو الامتحانات والشهادة... لقد توقف زمنها الخاص فجأة عند حدود هذا البيت، وأحست بأن الأيام أصبحت تشبه بعضها، فراغ يمتد في إثر فراغ، وأن العالم في الخارج يجري بسرعة وهي واقفة مكانها لا تبحر)²⁹ تُوظف الكاتبة تقنية التكتيف والتلخيص (ولم تمض أيام حتى كان كل شيء قد تقرر) لعكس السرعة القسرية التي تُتخذ بها القرارات الاجتماعية في مقابل تباطؤ وتعطل زمن الذات. فالقرار الأسري يتخذ إيقاعاً مفاجئاً حاسماً يقطع خط التطور الطبيعي لشخصية سارة.

ويقوم الشاهد هنا مفارقة زمنية صارخة بين حركتين: حركة صاعدة ومتسارعة لزميلاتها والمجتمع (يتقدمن نحو الامتحانات... العالم يجري بسرعة)، وحركة نكوصية متجمدة للذات النسوية (تراجع خطوة... توقف زمنها... واقفة مكانها). هذه الفجوة الحركية هي التجسيد الدقيق لمفهوم عدم التزامن؛ حيث يعيش الفرد في عصر حديث لكنه محاط ببنية زمنية تقليدية تعطل تحقّقه.

كما تتولد دلالة «الفراغ» هنا ليس باعتباره خلواً من الأشياء، بل بوصفه تكراراً رتيباً للزمن الركيك (أيام تشبه بعضها، فراغ يمتد في إثر فراغ). يتحول الزمن من "زمن إنجاز وتغير" إلى "زمن انتظار وثبات"، فتفقد الأيام قيمتها الكرونولوجية وتتحوّل إلى مساحة ثقيلة للاغتراب الزمني.

وتعزز الكاتبة هذا البناء عبر مجموعة من التقنيات السردية؛ فالتكرار يبطئ الإيقاع ويحول الشعور بالفراغ إلى زمن ممتد، بينما يؤدي الحذف والتلخيص إلى تسريع الزمن الخارجي، في مقابل إطالة المشاهد النفسية والوصف الداخلي، وهو ما يجعل الزمن الذاتي أكثر كثافة من الزمن التاريخي. كما يقل الحوار في لحظات الأزمة، لتحل محله المونولوجات الداخلية، فيزداد شعور القارئ بثقل الانتظار وطول التعطل، وتؤكد هذه القراءة أن الانتظار والتعطل ليسا موضوعين في الرواية فحسب، بل يمثلان آلية فنية لبناء الزمن السردية؛ فالرواية تجعل القارئ يعيش البطء عبر تباطؤ السرد، وتكرار المحاولات غير المكتملة، وإطالة لحظات الصمت والتردد. وهكذا يتحول الزمن إلى بنية دلالية تكشف حدود التغيير الاجتماعي، وتفسر كيف يغدو الفراغ رمزاً للاغتراب الذي تعيشه الذات النسوية في مجتمع تتفاوت فيه سرعات التحول.

حيث يُفرز الشد والجذب بين تطلعات الذات وقسوة الأطر الاجتماعية حالة حادة من عدم التزامن الزمني؛ إذ يمنح التعليمُ الأنثى أفقاً حداثياً متسارعاً، لكنها تصطدم ببطء البنية الاجتماعية وقيودها العتيقة.

وتُصوّر الكاتبة اندفاع الذات نحو التعليم والعمل كمنفذ للانخراط في زمن الحركة والإنتاجية،

(وكانت "منى" ترى في الكلية والمعهد باباً ينفتح على العالم، وفرصة لكي تجعل لحياتها معنى آخر غير جلوس النسوة في البيوت وانتظار القادم...) ³⁰ يُمثل السعي نحو المؤسسة التعليمية محاولة واعية لقطع سكونية "زمن الانتظار" البائس الذي كُبحت فيه المرأة لقرون. غير أن هذا التحرر ظل مكبلاً بمرجعيات البنية الأسرية، والتي تجسدت في شرط "موافقة الزوج": ولكن عملها وخروجها لم يكن قراراً ملكاً لها، بل كان معلقاً بكلمة واحدة وبموافقة الزوج التي إن أُعطيت استمر الزمن الحداثي، وإن حُجبت عاد السكون ليخنق طموحها. يكشف شاهد "موافقة الزوج" عن ماهية "التسارع المشروط"؛ فالأنثى وإن امتلكت الوعي والأدوات المعرفية للخروج إلى المجال العام، تظل فاعليتها الزمنية مرهونة بالإرادة الذكورية.

يرى النقاد أن هذا الارتهان هو المتسبب الأول في إعاقه اكتمال مشروع التحديث الفردي للأنثى، وإبقائها في منطقة برزخية بين الحركة والتعطل. وينجم عن هذا الحرمان المتعمد والانسداد الوجودي تشكّل البؤرة المركزية للرواية والمتمثلة في "الفراغ العريض" وهنا تورد الكاتبة:

(وهكذا قضى الله على آمال سارة وأحلامها... وحيل بينها وبين الالتحاق بالمعهد الذي ظلت تنتظر الالتحاق به سنتين كاملتين... فنحل جسمها ولازمها الانقباض وأصبحت لا ترى إلا وهي محزونة كئيبة... إنها وحدها البائسة الشقية التي قدر لها أن تعيش في فراغ عريض...) ³¹

هذا النص هو التجلي الأبرز لعنوان الرواية، حيث يلتقي المفهوم السيكلوجي بالبناء السردية. الفراغ العريض هنا ليس مجرد شغور في الوقت، بل هو "وقفة وجودية" وزمن ميت ناتج عن مصادرة الحق في النمو والتعليم. تتجلى تقنية الإبطاء الشديد (والوقفة السردية لتعكس تجميد طاقات الذات وإحالتها إلى الاجترار

النفسي الرتيب . ولتجسيد هذا التعطل الرتيب على المستوى البنائي، وظفت الكاتبة تقنيتي اختزال السنوات والطبي السردية لتجاوز الزمان الذي لا إنتاج فيه ولا تحول.

«...ومرت ثلاث سنوات كاملة وسارة على حالها، أيام تشبه الأيام، وليالٍ تتكرر كأنها ليلة واحدة، لا جديد يطرأ ولا أمل يلوح «...وانقضت أعوام الدراسة سراعاً دون أن تترك في جدران الدار أثراً يُذكر، فالسنوات التي تتغير فيها المدينة الخارجية كانت تمر داخل البيت كأنها قفزة في الفراغ»³²

تُسقط الكاتبة أعواماً بكاملها جملةً واحدة عبر الطبي السردية لتعبر عن خلو تلك المرحلة من أي تحول ملموس. بحيث يرى النقد الأدبي أن إسقاط الزمان في (الفراغ العريض) يُشكل معادلاً جمالياً لإلغاء القيمة الوجودية لسنوات الحرمان؛ فالزمن الذي لا تكتسب فيه الأنثى حريتها وفعاليتها يُصبح زمناً مستهلكاً ولا يستحق التدوين التفصيلي، فتطويه لتعميق الإحساس بوطأة العزلة ورتابة المأساة.

وتسد الرواية أفق الخلاص العاطفي عبر إنهاء علاقة "سارة" بـ "صلاح"، المهرب الأخير للذات (وعندما التفت نحوهما ورأهما ترقبانه وهما بقرب البوابة الكبيرة للدار، أخذ يلوح لهما بيده ولم يلبث أن ابتلعه الظلام...)»³³.

يُشكل غياب "صلاح" وابتلاعه في الظلام رمزاً لانسداد منافذ التغيير الاجتماعي والاقتصادي. كما إن التحاق صلاح بالجندية واختفائه يقطع الخيط العاطفي الأخير، لتبقى سارة حبيسة الدار والانتظار الساكن، متجرعةً مصيرها في القاع المظلم لـ "الفراغ العريض".

المبحث الثالث: دلالة الفراغ وأثار اختلال الإيقاعات الزمنية في الذات:

تنتقل الدراسة في هذا المبحث من التفكيك التقني والمفهومي للبنية الزمنية السردية وإيقاعاتها العامة إلى المستوى الدلالي والتأويلي الذي تؤول إليه هذه الإيقاعات؛ إذ لا تكتفي رواية «الفراغ العريض» لملكة الدار محمد عبد الله بتمثيل تفاوت السرعات الزمنية بين مظاهر الحداثة البنيوية ومقاومة البنى الاجتماعية التقليدية، بل تجعل من هذا الاختلال بؤرة رئيسة لإنتاج المعنى وتوليد الدلالة الوجودية.

في هذا السياق، يتجاوز مفهوم –الفراغ- حدوده المكانية المباشرة ليغدو مقولة زمانية ورمزاً مركزياً يختزل الفجوة الوجودية بين "الزمن التاريخي المتاح" و"إمكان التحقق الذاتي". فتفاوت الإيقاعات وتزامن غير المتزامن يفضيان بالضرورة إلى انعكاسات حادة على وعي الذات النسوية، فتستقر آثار هذا التعطل في الجسد والذاكرة والوجدان، بوصفها تجليات حية للاغتراب الزمني.

وانطلاقاً من المفهوم الاجتماعي لـ (التسارع والاغتراب الزمني) والتمييز النقدي بين الزمن الكوني/التاريخي والزمن المعيش، يسعى هذا المبحث إلى الكشف عن الكيفية التي تتحول بها البنية الزمنية من إطار تنظيمي للأحداث إلى دلالة إنسانية وجمالية تكشف مأزق الذات النسوية في مجتمع يمر بتحويلات غير متكافئة.

وبناءً على هذا التصور، يُقسم هذا المبحث إلى مطلبين رئيسين:

المطلب الأول: الفراغ بوصفه نتيجة لاختلال الإيقاعات الزمنية: (الفجوة بين الإمكان والتحقق).

لا يُقدّم الفراغ في الرواية بوصفه حالة نفسية عابرة أو إحساساً مجرداً بالوحدة الفردية، بل هو الحصيلة البنيوية لاختلال العلاقة بين الزمن وإمكان التحقق؛ إذ يتسارع إيقاع التحديث المؤسسي في المجال العام، بينما تتباطأ قدرة الذات النسوية على الاستفادة منه جراء كوابح البنية الاجتماعية التقليدية.

يختزل عنوان الرواية بنية زمنية مأزومة؛ فالمجتمع يشهد توسعاً في التعليم، وتطوراً في وسائل النقل، وانفتاحاً مجالياً، غير أن هذه الإمكانيات لا تنعكس بالقدر نفسه على كينونة المرأة (مئي/سارة)، فتظل قدرتها على اتخاذ القرار مقيدة بمرجعيات أسرية أبطأ في تحولها. ومن ثم، لا ينشأ الفراغ عن غياب الفرص، بل عن تعذر تحويلها إلى خبرة معيشة فاعلة.

ويتوافق هذا الطرح مع المنهج النقدي؛ إذ لا تُقاس الحداثة لديه بسعة التحولات التكنولوجية والمؤسسية فحسب، بل بقدرة الأفراد على إقامة "علاقة رنين فاعلة" مع العالم. فإذا تعذر ذلك، نبتت حالة من (الاغتراب الزمني) يشعر فيها الإنسان بأن العالم يتحرك من حوله بأسرع مما يستطيع الاندماج فيه.

ويقوم السرد مفارقة دقيقة بين الزمن الخارجي المتسارع والزمن الداخلي للشخصية. وتتجسد هنا رؤية النقد في التمييز بين "الزمن التاريخي الخطي" و"الزمن المعيش الشعوري"؛ فبينما يتقدم الأول في خط صاعد، يخضع الثاني لعمق الصدمة والانكسار.

وتتحول المقومات المكانية (الطريق، الكلية، البيت) إلى فضاءات تشهد على هذا الانقطاع؛ فالطريق الذي يُفترض فيه الدلالة على الحركة والانفتاح، يغدو في النص شاهداً على العجز والتعطل الزمني.

المطلب الثاني: تجليات الاغتراب الزمني في الذات النسوية (الجسد، الذاكرة، الفقد)

تستقر آثار اختلال الإيقاعات في عمق التجربة الإنسانية للشخصية النسوية؛ فتغدو الذات الميدان المباشر الذي تُمارس عليه آثار عدم التزامن بين زمن المجتمع الحديث وزمن الفرد المحاصر.

يبلغ الاغتراب ذروته السردية والدلالية في المشهد الختامي للرواية، حين تقف الشخصية أمام تسارع الواقع الحركي العاجز عن لحاقه.

(ومادة الأرض تحت قدميها، فاستندت إلى الجدار السميكة... وأرادت أن تصرخ... لكنها لم تستطع. وأرادت أن تجري وراء العربة... أخذت تسير في اتجاه بيتها بخطى مضطربة... الفراغ عريض، عريض...) ³⁴

تتجلى في هذا المشهد خلاصة المأساة؛ فالأفعال تبدأ بالرغبة والنزوع الحركي (أرادت)، لكنها تصطدم فوراً بصيغة العجز والنفي (لم تستطع). يتحول الجسد هنا من أداة للفعل والترقي إلى شاهد على العجز الصامت. تبتعد العربة وتواصل سيرها في زمن العالم المتسارع، بينما تعجز الذات عن اللحاق بها لتستند إلى "الجدار السميكة" الذي يمثل قسوة المكان وركوده.

كما يؤدي تكرار عبارة «الفراغ عريض، عريض» وظيفة إيقاعية حاسمة؛ إذ يعمل التكرار على إبطاء الإيقاع السردية وتحويل اللحظة النفسية القصيرة إلى زمن ممتد ومهول تعيش الكاتبة والقارئ كثافته الوجدانية.

وتتحول الذاكرة لدى الذات النسوية من وسيلة لاسترجاع الماضي إلى أداة لإعادة إنتاج خيالات الحاضر . فالإخفاقات المتراكمة تمنح الفقد حضوراً دائماً داخل اللحظة الراهنة . وتتفق هذه الرؤية مع ما طرحته -سيزا قاسم-؛ حيث يُصبح الزمن في الرواية الحديثة وسيلة لكشف العالم الداخلي المحطم للشخصية بدلاً من الاكتفاء بتسجيل الأحداث المتعاقبة.³⁵

وبناءً عليه، يغدو "الفقد" ثمرة حتمية لعجز الذات عن "مزامنة" إيقاعها الخاص مع الإيقاع القاسي الذي يفرضها العالم الخارجي.

ومجمل القول من هذا، يتضح أن الجسد والذاكرة والفقد ليست مجرد موضوعات هامشية أو انفعالات عابرة في رواية «الفراغ العريض»، وإنما تُشكل في مجموعها تجليات حية ومباشرة للاغتراب الزمني الناجم عن تفاوت الإيقاعات داخل المجتمع . فقد نجحت الرواية عبر تقنيات السرد الحديثة—كالوقفة الوصفية، والإبطاء، وتكرار عبارات الشلل الحركي—في تحويل الانكسار الذاتي للأنتى إلى معادل موضوعي لركود البنية المحافظة أمام تسارع العالم الخارجي، لتغدو التجربة النسوية تجسيداً حافلاً بفجوة عدم التزامن بين زمن الإمكان وزمن التحقق.

تأسيساً على ما تقدم، يُشكل المبحث الثالث الذروة الدلالية والتركيبية لهذه الدراسة؛ إذ نقل البحث من التفكيك التقني للبنية الزمنية إلى التأويل الوجودي والإنساني لأبعادها . وقد أثبت التحليل أن «الفراغ» في الرواية لم يكن مجرد خلو مكاني أو انعدام للأحداث، بل جاء حصيلة بنيوية لاختلال الإيقاعات الزمانية بين مجتمع ينزع نحو التحديث المؤسسي والتكنولوجي، وذات نسوية محاصرة بكوابح زمن اجتماعي تقليدي بطيء ومقاوم للتغير .

وبذلك، نجحت -الساردة- في جعل البنية الزمنية عنصراً مولداً للمعنى؛ حيث تحول الزمن من مجرد إطار كرونولوجي لتتابع الوقائع إلى مقولة نقدية تكشف مأزق الذات النسوية، وتعكس عمق الفجوة بين طموح الممكن وقسوة المتحقق في مرحلة انتقالية حاسمة من تاريخ المجتمع السوداني.

الخاتمة

خلصت هذه الدراسة إلى أن رواية الفراغ العريض لملكة الدار محمد عبد الله تقدم تصوراً سردياً عميقاً للزمن، يتجاوز كونه إطاراً لتعاقب الأحداث، ليغدو عنصراً بنائياً ودلالياً فاعلاً في تشكيل العالم الروائي، وبناء الصراع، وإنتاج الدلالة.

وقد أظهر التحليل أن تداخل الزمن التاريخي والاجتماعي والأسري والذاتي، وما ينشأ عنه من تفاوت في الإيقاعات الزمنية، يشكل أحد المرتكزات الأساسية في بناء الرؤية الفنية والفكرية للرواية . كما بينت الدراسة قدرة الكاتبة على توظيف تقنيات الزمن السردى للكشف عن أثر التحولات الاجتماعية في تشكيل التجربة الإنسانية والنسوية، وإبراز العلاقة بين حركة المجتمع وتعرثر الذات في ظل اختلال التزامن بين مجالات الحياة المختلفة.

وفي ضوء ما أسفر عنه التحليل من نتائج، يمكن إجمال أهم ما توصلت إليه الدراسة فيما يأتي:

نتائج البحث:

1. أثبتت الدراسة أن مفهوم التسارع الاجتماعي يمثل مدخلًا نقديًا فاعلاً لتحليل رواية *الفراغ العريض*، وتفسير تفاوت الإيقاعات الزمنية داخل العالم الروائي.
2. بينت الدراسة أن الزمن في الرواية يؤدي وظيفة بنائية ودلالية، ولا يقتصر على كونه إطارًا لتعاقب الأحداث، بل يسهم في بناء الشخصيات، وتشكيل الصراع، وإنتاج الرؤية الفكرية للنص.
3. كشفت الرواية عن تفاوت واضح بين إيقاع المجال العام المتسارع وإيقاع البنية الأسرية البطيء، مما أوجد حالة من عدم التزامن بين التحولات الاجتماعية والقيم التقليدية، وأبرز محدودية أثر التحديث في تغيير البنى الاجتماعية الراسخة.
4. بينت الدراسة أن الزمن التاريخي أدى دورًا بنائيًا في تشكيل مسار الشخصيات والعلاقات الاجتماعية، من خلال تأثير الحرب العالمية الثانية، والتعليم، والعمل، والهجرة إلى المدينة، بما جعل الأحداث التاريخية جزءًا من التجربة المعيشة داخل الرواية.
5. أوضحت الدراسة أن الذات النسوية كانت المجال الأكثر تأثرًا باختلال الإيقاعات الزمنية؛ إذ تجسد ذلك في مشاعر الانتظار، والتعطّل، والاعتراب، حتى غدا «الفراغ العريض» رمزًا لاختلال العلاقة بين الذات والزمن، واتساع الفجوة بين الإمكان والواقع.
6. كشفت القراءة السردية عن توظيف الكاتبة لتقنيات الزمن، مثل التلخيص، والحذف، والإبطاء، والوقفة الوصفية، والمشهد، والاسترجاع، والاستباق، بما أسهم في بناء الإيقاع السردية، وتجسيد التوتر بين الحركة والسكون، وتعميق الأبعاد النفسية والدلالية للنص.
7. انتهت الدراسة إلى أن تعدد الإيقاعات الزمنية يمثل أحد أبرز المرتكزات الجمالية والفكرية في رواية *الفراغ العريض*، ويؤكد قيادة ملكة الدار محمد عبد الله في توظيف البنية الزمنية للكشف عن التحولات الاجتماعية وتجلياتها في التجربة النسوية، مما يمنح الرواية مكانة متميزة في مسار الرواية السودانية المبكرة.

هوامش وإحالات المقال

- 1- التسارع الاجتماعي: روزا، هارتموت. (2013) ترجمة جوناثان تريبانير. مطبعة جامعة كولومبيا ص 15
- 2 - المصدر نفسه، كولومبيا ص 43
- 3- المصدر نفسه، ص 117-120
- 4 - المصدر نفسه، ص 117
- 5- خطاب الحكاية: بحث في المنهج جنيت، جيرار (ترجمة محمد معتصم، عمر حلي، وعبد الجليل الأزدي؛ الطبعة الثانية). الهيئة العامة لقصور الثقافة - ص 112
- 6-الزمان والحكاية (ترجمة سعيد الغانمي؛ الجزء الأول). ريكور، بول. (1984/1993). دار الأمان. ص 43
- 7 - تحليل الخطاب الروائي: الزمن - الإستراتيجية - المفهوم يقطين، (الطبعة الثالثة). المركز الثقافي العربي. 1997، ص 88
- 8-بنية الشكل الروائي: الفضاء - الزمن - الشخصية بحراوي، حسن (الطبعة الأولى). المركز الثقافي العربي ص 67

- 9- الزمان والحكاية ريكور، بول (ترجمة سعيد الغاني؛ الجزء الأول). (1984/1993) دار الأمان. ص 67
- 10- التسارع الاجتماعي: روزا، هارتموت، ص 78
- 11- بناء الرواية: قاسم، سيزا (1984). دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ (الطبعة الأولى). الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 41.
- 12- بنية الشكل الروائي بحراوي، حسن: الفضاء - الزمن - الشخصية ، ص 109
- 13- الفراغ العريض ملكة الدار محمد عبد الله (الطبعة الأولى). المجلس القومي للآداب والفنون / دار التألف. ص 7
- 14- المصدر نفسه، ص 15
- 15- رجال في الشمس كنفاني، غسان. (1963). (الطبعة الأولى). دار الطليعة ص 22
- 16- الفراغ العريض ملكة الدار محمد عبد الله، ص 5
- 17- بنية الشكل الروائي بحراوي، حسن: الفضاء - الزمن - الشخصية ، ص 12
- 18- الفراغ العريض ملكة ، ص 11
- 19- المصدر نفسه، ص 11
- 20- المصدر نفسه، ص 182
- 21- المصدر نفسه، ص 181
- 22- المصدر نفسه، ص 182
- 23- المرأة والتغيير الاجتماعي في الرواية العربية صالح، أماني (الطبعة الأولى) المعهد العالي للفكر الإسلامي. ص 62
- 24- الفراغ العريض ملكة الدار محمد عبد الله، ص 121
- 25- المصدر نفسه، ص 32
- 26- المصدر نفسه، ص 58
- 27- المصدر نفسه، ص 61
- 28- المصدر نفسه، ص 182
- 29- المصدر نفسه، ص 59
- 30- المصدر نفسه، ص 105
- 31- المصدر نفسه، ص 58
- 32- المصدر نفسه، ص 59
- 33- المصدر نفسه، ص 53
- 34- المصدر نفسه، ص 200
- 35- بناء الرواية: دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ قاسم، سيزا، ص 42

المصادر والمراجع:

1. بحراوي، حسن. (1990). بنية الشكل الروائي: الفضاء - الزمن - الشخصية (الطبعة الأولى). المركز الثقافي العربي.
2. جنيت، جبرار. (1997). خطاب الحكاية: بحث في المنهج (ترجمة محمد معتصم، عمر حلي، وعبد الجليل الأزدي؛ الطبعة الثانية). الهيئة العامة لقصور الثقافة.
3. رزق، عثمان. (2004). تحولات المدينة في السرد العربي المعاصر. دار المعارف.
4. روزا، هارتموت. (2013). التسارع الاجتماعي: نظرية جديدة للحدثة [Social Acceleration: A New Theory of Modernity] (ترجمة جوناثان تريبيانير). مطبعة جامعة كولومبيا.
5. ريكور، بول. (1984/1993). الزمان والحكاية (ترجمة سعيد الغاني؛ الجزء الأول). دار الأمان.
6. صالح، أماني. (1999). المرأة والتغيير الاجتماعي في الرواية العربية (الطبعة الأولى). المعهد العالي للفكر الإسلامي.

7. قاسم، سيزا. (1984). *بناء الرواية: دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ* (الطبعة الأولى). الهيئة المصرية العامة للكتاب.
8. كنفاني، غسان. (1963). *رجال في الشمس* (الطبعة الأولى). دار الطليعة.
9. محمد عبد الله، ملكة الدار. (1970). *الفراغ العريض* (رواية؛ الطبعة الأولى). المجلس القومي للآداب والفنون / دار التألف.
10. يقطين، سعيد. (1997). *تحليل الخطاب الروائي: الزمن - الإستراتيجية - المفهوم* (الطبعة الثالثة). المركز الثقافي العربي.